

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَفَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرُ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا، وَكُلُّ مُحَدَّثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَمَا أَنْ أُرْسَلَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ رَسُولَهُ الْكَرِيمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هِدَايَةً وَنُورًا حَتَّى جَاءَهُ الْإِيذَاءُ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ، وَطَالَ الْإِيذَاءُ فِيمَنْ طَالَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَخْلُصْ إِلَيْهِ شَيْءٌ يَكْرَهُهُ حَتَّى مَاتَ عَمَّهُ أَبُو طَالِبٍ عَلِيَّ رَأْسَ عَشْرِ سَنَوَاتٍ مِنْ مَبْعَثِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَ الْأَذَى لَمَّا حَلَّ بِسَاحَةِ الْأَصْحَابِ - عَلَيْهِمُ الرِّضْوَانُ -، أَمَرَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُهَاجِرُوا إِلَى الْحَبْشَةِ. وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ هَا مَلِكًا عَادِلًا لَا يُظْلَمُ عَنْده أَحَدٌ. فَهَاجَرَ إِلَى الْحَبْشَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ مَنْ هَاجَرَ، ثُمَّ سَعَتْ قَرِيشٌ سَعَايَتَهَا مِنْ أَجْلِ أَنْ تَرُدَّ الْمُهَاجِرِينَ مِنَ الْحَبْشَةِ إِلَى مَكَّةَ مِنْ أَجْلِ فَتْنَتِهِمْ وَتَعْدِيهِمْ؛ فَتَبَّتْ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ النَّجَاشِيَّ - طَيِّبَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ثَرَاهُ وَأَحْسَنَ فِي الْجَنَّةِ مَثْوَاهُ -، إِذْ أَسْلَمَ بَعْدُ قَلْبُهُ وَزَمَامَةُ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَتَبَعَ النَّبِيُّ الْأَمِينَ ﷺ، فَتَبَّتْهُ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ؛ فَلَمْ تَبْلُغْ قَرِيشٌ مِنْ ذَلِكَ مَبْلَغًا، وَسَمِعَ الْمُهَاجِرُونَ إِلَى الْحَبْشَةِ أَنَّ قَرِيشًا قَدْ فَاءَتْ إِلَى ظِلِّ الْعَقْلِ وَأَنَّهُ كَفَّتِ الْأَذَى وَالْإِيذَاءَ عَنْ مُحَمَّدٍ وَحَزْبِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَعَادَ مَنْ عَادَ مَخْدُوعًا بِهَذَا الْبَرَقِ الْخَلْبِ الَّذِي لَا مَطَرُ فِيهِ وَلَا غَيْثٌ، حَتَّى إِذَا مَا كَانُوا عَلَى مَشَارِفِ مَكَّةَ؛ عِلِمُوا عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّ الْأَذَى قَدْ ازدَادَ جَدًّا، فَعَادَ إِلَى الْحَبْشَةِ مَنْ عَادَ وَدَخَلَ إِلَى مَكَّةَ مَنْ دَخَلَ، وَكَانَ فِيمَنْ هَاجَرَ إِلَى اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ فِرَارًا بِدِينِهِ مِنَ الْأَذَى وَالْإِيذَاءِ أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الْأَسَدِ وَزَوْجُهُ أُمُّ سَلَمَةَ هُنْدُ بِنْتُ زَادِ الرَّاكِبِ الْمَخْزُومِي، وَكَانَ أَبُوهَا مِنَ الْأَجْوَادِ الْمَشْهُورِينَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ حَتَّى لَقِبَ بِزَادِ الرَّاكِبِ.

هَاجَرَ أَبُو سَلَمَةَ وَأُمُّ سَلَمَةَ إِلَى الْحَبْشَةِ ثُمَّ عَادَا فِيمَنْ عَادَ، وَزَادَتْ الْفِتْنَةُ وَزَادَ الْإِيذَاءُ حَتَّى كَانَتْ بَيْعَةُ الْعُقَبَةِ الثَّانِيَةِ، وَأَذَنَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْقِتَالِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ قَوْلَهُ: ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ فَلَا دَفْعَ لِلَّذِينَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ لَهْدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٣٩-٤١].

فَأَذَنَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ هَذَا الْبَلَاغَ الشَّافِيَ الْكَافِيَ لِرَسُولِهِ ﷺ بِالْقِتَالِ، وَأَسْقَطَ فِي يَدِ قُرَيْشٍ؛ إِذْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ بَيْعَةِ الْعُقَبَةِ الثَّانِيَةِ قَدْ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: «أَرَيْتُمْ دَارَ هَجْرَتِكُمْ، أَرَيْتُمْ دَارًا سَبِيحَةً بَيْنَ لَا بَتَيْنِ» وَالْأَرْضُ السَّيِّحَةُ: هِيَ مَدِينَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا يَغْلُوهَا مِنَ الْمَلُوحَةِ، فَلَيْسَ بِهَا مِنَ الشَّجَرِ إِلَّا الْقَلِيلُ وَهُوَ شَجَرُ النَّخْلِ، وَلَكِنَّهَا لَا تُنْبِتُ فِيمَا عَدَا ذَلِكَ نَبَاتًا إِلَّا الْقَلِيلَ النَّادِر. بَيْنَ لَا بَتَيْنِ: أَيِ بَيْنَ الْحَرَّتَيْنِ، وَالْحَرَّةُ أَرْضٌ ذَاتُ حَجَارَةٍ سُودَ كَأَنَّمَا احْتَرَقَتْ بِالنَّارِ. فَهَاجَرَ بِأَمْرِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ثُمَّ بِأَمْرِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ إِلَى مَدِينَةِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ هَاجَرَ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ هَاجَرَ إِلَى مَدِينَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ وَابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ، فَكَانَا يُقْرَأُ النَّاسَ الْقُرْآنَ، ثُمَّ جَاءَ بِلَالٌ وَسَعْدٌ وَعِمَارُ بْنُ يَاسِرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ -، ثُمَّ جَاءَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فِي عَشْرِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَأَرَادَ أَبُو سَلَمَةَ أَنْ يُهَاجَرَ بِزَوْجِهِ أُمِّ سَلَمَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَنْهَا - وَمَعَهَا وَلَدُهُمَا سَلَمَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ -، أَرَادَ أَبُو سَلَمَةَ أَنْ يُهَاجَرَ بِزَوْجِهِ وَلَدِهِ إِلَى مَهَاجِرِ النَّبِيِّ ﷺ، وَخَرَجَ بِهَا عَلَى بَعِيرٍ يَقُودُهُ، فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَاهَا بَعْضُ قَوْمِهَا مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ؛ فَتَسَامَعَ بِهَا الْقَوْمُ وَجَاعُوا إِلَى أَبِي سَلَمَةَ فَقَالُوا لَهُ: يَا هَذَا؛ أَمَّا نَفْسُكَ فَقَدْ غَلَبَتْنا عَلَيْهَا، وَأَمَّا صَاحِبَتُنَا؛ فَوَاللَّهِ لَا نَدْعُهَا لَكَ تَسِيرَ بِهَا فِي بِلْدَانِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ مُشَرَّدَةً طَرِيدَةً، فَحَجَزُوا أُمَّ سَلَمَةَ، وَتَسَامَعَ قَوْمُ أَبِي سَلَمَةَ ﷺ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْأَسَدِ بِمَا كَانَ مِنْ شَأْنِ بَنِي مَخْزُومٍ وَأَنَّهُمْ حَجَزُوا سَلَمَةَ وَأُمَّهُ، فَجَاعُوا إِلَى بَنِي مَخْزُومٍ أَرَادُوا أَنْ يَأْخُذُوا سَلَمَةَ مِنْهُمْ، فَقَالُوا: أَمَّا ابْنَتُكُمْ وَصَاحِبَتُكُمْ فَذُنُوبُكُمْ لَا تُرِيدُهَا، وَأَمَّا وَلَدُنَا؛ فَإِنَّهُ بَصُعَّةٌ مِنَّا وَلَا بُدَّ أَنْ نَأْخُذَهُ. وَتَجَادَبَ الْقَوْمُ سَلَمَةَ بَنَ أُمِّ سَلَمَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَنْهَا - حَتَّى خَلَعُوا يَدَهُ كَمَا قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - عَلَيْهَا -، وَأَخَذَهُ قَوْمُ أَبِيهِ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْأَسَدِ وَاحْتَجَزَ عَنْدَهُمْ، وَأَمَّا هِيَ فَكَانَتْ تَخْرُجُ إِلَى الْأَبْطَحِ - إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي وَقَعَتْ فِيهِ الْوَاقِعَةُ -؛ لَكِي تَنْدُبَ حَظًا عَائِرًا جَدًّا حَلَّ بِسَاحَتِهَا وَنَزَلَ عَلَى رَأْسِهَا - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -.

فَأَمَّا زَوْجُهَا فَإِنَّهُ سَارَ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأَمَّا ابْنُهَا فَقَدْ أَخَذَهُ قَوْمُ أَبِيهِ، فَهِيَ لَا تَخْلُصُ إِلَيْهِ وَلَا يَخْلُصُ إِلَيْهَا، وَأَمَّا هِيَ فَمُحْتَجِرَةٌ فِي مَكَّةَ لَا تَسْتَطِيعُ مِنَ الْكُفَّارِ فَكَارًا وَلَا فِرَارًا، وَظَلَّتْ عَامًا كَامِلًا تَخْرُجُ إِلَى الْأَبْطَحِ، تَجْلِسُ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ الَّذِي وَقَعَتْ لَهَا فِيهِ الْوَاقِعَةُ؛ لَكِي تَنْدُبَ حَظًا عَائِرًا جَدًّا ضَارِعَةً إِلَى اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَنْ يُفَرِّجَ كَرْبَهَا مِنَ الصَّبَاحِ إِلَى الْمَسَاءِ جَالِسَةً عَلَى صَخْرَةٍ بَاكِئَةً حَتَّى رَقَّ لَهَا رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهَا بَعْدَمَا ظَلَّتْ سَنَةً كَامِلَةً عَلَى ذَلِكَ. فَقَالَ: أَلَا خَلَيْتُمْ بَيْنَ هَذِهِ الْمُسْكِينَةِ وَبَيْنَ زَوْجِهَا وَلَدِهَا. فَقَالُوا: إِنْ شَاءَتْ أَنْ تَخْرُجَ مُهَاجِرَةً؛ فَعَلَتْ، فَلَمْ تَحُولْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ ذَلِكَ. وَخَرَجَتْ وَتَوَسَّطَ الْعُقَلَاءُ عِنْدَ بَنِي عَبْدِ الْأَسَدِ مِنْ قَوْمِ أَبِي سَلَمَةَ، فَرَّدَ سَلَمَةَ إِلَى أُمِّهِ، وَخَرَجَتْ هِيَ عَلَى بَعِيرٍ وَمَعَهَا وَلَدُهَا فِي حِجْرِهَا وَلَيْسَ لَهَا مِنْ حِمَايَةٍ إِلَّا حِمَايَةُ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَحُدُّهُ، وَلَقِيَهَا عِنْدَ التَّعِيمِ - وَهُوَ مَوْضِعٌ مَعْرُوفٌ الْآنَ لِكُلِّ مَنْ حَجَّ أَوْ اعْتَمَرَ عَلَى بُعْدِ ثَلَاثَةِ أَمْيَالٍ مِنْ بَلَدِ اللَّهِ الْحَرَامِ، لَقِيَهَا عِثْمَانُ بْنُ مِظْعُونٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَكَانَ مُشْرِكًا لَمْ يُسْلِمَ بَعْدُ، لَقِيَهَا؛ فَقَالَ: إِلَى أَيْنَ يَا بِنْتَ زَادِ الرَّاكِبِ؟ فَقَالَتْ: خَرَجْتُ مُهَاجِرَةً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَقَالَ: وَمِثْلُكَ تَخْرُجُ وَخَلَدَهَا فَصَحَبَهَا عِثْمَانُ بْنُ مِظْعُونٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - حَتَّى إِذَا مَا كَانَتْ هُنَاكَ عِنْدَ قُبَاٍ بِقَرِيبَتِهَا، قَالَ: إِنَّ زَوْجَكَ بِهَذِهِ الْقَرْيَةِ، فَذُونُكَ، ثُمَّ عَادَ رَاجِعًا إِلَى مَكَّةَ الْمَكْرَمَةِ - زَادَهَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ كَرَمًا وَتَشْرِيفًا -...

.. لَمْ يَخْرُجْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِنْدَمَا أُذِنَ لَهُ فِي الْهَجْرَةِ أَوَّلَ مَنْ خَرَجَ، بَلْ تَخَلَّفَ فِي مَكَّةَ ﷺ وَقَدَّمَ الْأَصْحَابَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَهَاجَرُوا جَمِيعًا إِلَّا مَنْ قَضَى اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِفِتْنَتِهِ؛ فَتَبَّتْ، أَوْ انْحَرَفَ عَنِ الْمَنْهَجِ السَّوِيِّ - نَسَأَلُ اللَّهَ السَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ -، وَأَمَّا الْأَمْرُ الثَّانِي: فَإِنَّ الرَّسُولَ ﷺ اخْتَارَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لَهُ فِي الْهَجْرَةِ صَاحِبًا وَهُوَ أَبُو بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، وَكَانَ يَسْتَأْذِنُ النَّبِيَّ فِي أَنْ يُهَاجَرَ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَيَقُولُ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا أَبَا بَكْرٍ عَلَى رِسْلِكَ لَعَلَّ اللَّهَ يَجْعَلُ لَكَ صَاحِبًا». فَكَانَ يَقُولُ: الصُّحْبَةُ الصُّحْبَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، يَرْجُو أَنْ يَكُونَ صَاحِبَ النَّبِيِّ فِي هِجْرَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَابْتَنَعَ أَبُو بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - رَاحِلَتَيْنِ، فَغَلَفَهُمَا وَرَقَ السَّمَرِ ثُمَّ إِنَّهُ جَعَلَ ذَلِكَ عَنْده فِي مَكَانٍ حُدُّهُ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ سِوَاءَ حَتَّى أَذِنَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لِنَبِيِّهِ بِالْخُرُوجِ مُهَاجِرًا إِلَى مَهَاجِرِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَأَمَّا أَمْرُ نَبِيَّا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي لَيْلَةِ هِجْرَتِهِ؛ فَأَمْرٌ مُؤَيَّدٌ بِالْوَحْيِ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، يَظَلُّ عَلَيَّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فِي فِرَاشِ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَدْ تَسَجَّى بِبُرْدَةِ الْخَضِرِيِّ الْأَخْضَرِ، وَالرَّسُولُ لَيْسَ فِي بَيْتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَلْ ذَهَبَ فِي وَقْتِ تَخَفُّتِ فِيهِ الرِّقَابَةُ وَتَنَامُ فِيهَا أَعْيُنُ الرُّقَبَاءِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ذَهَبَ فِي الْهَاجِرَةِ وَكَانَتْ الْهَجْرَةُ فِي آخِرِ شَهْرِ مِنْ أَشْهُرِ الصَّيْفِ فِي السَّنَةِ الثَّلَاثَةِ عَشْرَةَ مِنْ مَبْعَثِ الرَّسُولِ ﷺ.

فَذَهَبَ فِي وَقْتِ الْقَيْلُولَةِ فِي الْهَاجِرَةِ فِي وَقْتِ لَوْ وَضَعْتَ فِيهِ لَحْمًا نَبِيًّا عَلَى رِمَالِ الصَّحْرَاءِ الْمُحْرِقَةِ لَأَنْصَحْتَهُ، ذَهَبَ إِلَى بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ فِي سَاعَةٍ لَمْ يَكُنْ يَأْتِي فِيهَا أَبَا بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، يَقُولُ أَبُو بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: مَا أَرَى النَّبِيَّ ﷺ قَدْ أَتَى فِي هَذَا الْوَقْتِ إِلَّا لِحَدِيثٍ حَدَّثَ. فَلَمَّا دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ؛ أَعْلَمَهُ أَنَّ الْإِذْنَ بِالْهَجْرَةِ قَدْ جَاءَهُ مِنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ الصُّحْبَةُ الصُّحْبَةُ. قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكَ صَاحِبًا يَا أَبَا بَكْرٍ». وَخَرَجَ الرَّسُولُ فِي وَقْتِ الْهَاجِرَةِ مِنْ خَوْخَةٍ فِي بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ - وَهِيَ كُوَّةٌ نَافِذَةٌ فِي الْجِدَارِ الْخَلْفِيِّ لِبَيْتِ أَبِي بَكْرٍ -، وَإِذَا كَانَتْ هُنَاكَ رِقَابَةٌ مِنْ اسْتِخْبَارَاتِ قُرَيْشٍ تَرْقُبُ مُحَمَّدًا ﷺ، وَكَانُوا قَدْ بَيَّنُّوا قَتْلَهُ فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي هَاجَرَ فِيهَا ﷺ، إِذَا كَانَتْ أَعْيُنُ الرُّقَبَاءِ تَرْقُبُهُ؛ فَإِنَّمَا تَتَطَلَّعُ إِلَى بَابِ بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ، وَأَمَّا الرَّسُولُ ﷺ فَيَخْرُجُ مَعَ أَبِي بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مِنْ خَوْخَةٍ فِي الْجِدَارِ الْخَلْفِيِّ لِبَيْتِ أَبِي بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -. وَأَمَّا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَسِيرُ صَوْبَ الْجَنُوبِ، مَعَ أَهْمٍ يَعْلَمُونَ أَنَّ طَرِيقَ الشَّمَالِ مُؤَدٍّ إِلَى الْمَدِينَةِ الَّتِي يُهَاجِرُ إِلَيْهَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ جَنُوبًا إِلَى جَبَلِ ثَوْرٍ وَدَخَلَ الْغَارَ مَعَ صَاحِبِهِ ﷺ فِي غَارِ ثَوْرٍ مَعَ أَبِي بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، فَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ بَيْنَ يَدَيْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى أَسْتَبْرَأَ لَكَ الْغَارَ، وَدَخَلَ فَفَتَحَ الْغَارَ، مَرَّقَ رِدَائَهُ وَجَعَلَهُ فِي الشَّقِيقِ حَذْرًا مِنْ أَنْ يَكُونَ بِهَا شَيْءٌ مِنَ الْهُوَامِ فَيُؤْذِي ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَدَخَلَ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. مِنْ جُودَةِ الْإِعْدَادِ وَسَلَامَةِ الْاسْتِعْدَادِ أَنْ جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي بَكْرٍ ﷺ عَيْنًا عَلَى قُرَيْشٍ يَتَلَصَّصُ عَلَيْهِمْ فِي الْأَصْبَاحِ، فَإِذَا مَا كَانَ الْمَسَاءُ أَخَذَ مَا وَضَعَ عَلَيْهِ سَمْعُهُ وَيَدُهُ وَسَمِعَ قَلْبُهُ وَذَهَبَ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، وَالنَّبِيُّ مَعَ صَاحِبِهِ فِي الْغَارِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَأَمَّا تَأْمِينُ أَمْرِ الْمُتُونَةِ فَقَدْ جُعِلَ إِلَى أَسْمَاءَ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَعَنْ أَبِيهَا -، وَانْظُرْ إِلَى تَوَزِيعِ الْأَدْوَارِ هَا هُنَا، لَمْ يَجْعَلِ النَّبِيُّ ﷺ أَمْرَ الزَّادِ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ؛ لِأَنَّهُ لَوْ حَمَلَ زَادًا فِي إِحْدَى يَدَيْهِ أَوْ كِلْتَاهُمَا ثُمَّ خَرَجَ إِلَى أَيِّ سَبِيلٍ؛ لَتَبِعْتَهُ أَعْيُنُ الرُّقَبَاءِ وَتَبِعْتَهُ بَعْدَ ذَلِكَ أَقْدَامُهُمْ وَلَعِلِمُوا مَوْضِعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَخَجَّى عَنْهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَلِكَ وَجَعَلَهُ مَنُوطًا بِأَسْمَاءَ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ، وَالْأُنْثَى وَالْمَرْأَةُ - وَكَانَتْ أَسْمَاءُ حَامِلًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - تَسِيرُ خَمْسَةَ أَمْيَالٍ كَامِلَاتٍ إِلَى غَارِ ثَوْرٍ فِي جَبَلِ ثَوْرٍ - وَهُوَ جَبَلُ شَاهِقٍ شَهْمٌ صُلْبٌ مُتَحَجِّهِمْ حِجَارَتُهُ مَسْنُونَةٌ عَنِيْفَةٌ حَادَّةٌ حَتَّى لَقَدْ خَفِيتُ قَدَمًا رَسُولَ اللَّهِ - الْمَرْأَةُ إِذَا حَمَلَتْ زَادًا وَطَعَامًا وَمَتَاعًا لَا يُتَلَفُ إِلَيْهَا، كَانَتْ أَسْمَاءُ تَوْمُنُ أَمْرَ الزَّادِ وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ يَأْتِي لِلنَّبِيِّ ﷺ بِاسْتِخْبَارَاتِ قُرَيْشٍ، وَلَمْ يَجْعَلِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمْرَ الْاسْتِخْبَارَاتِ مَوْكُولًا بِأَسْمَاءَ؛ لِأَنَّ الْمَرْأَةَ مَهْمَا بَلَغَ عَقْلُهَا لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ وَاعِيًا حَافِظًا كَالرَّجُلِ الْحَاقِظِ اللَّيِّبِ؛ هَذِهِ وَاحِدَةٌ.

وثانية: أن أسماء لا تستطيع وهي امرأة أن تدخل في منتديات قريش ولا أن تدخل في مجامع الرجال لتتفقد الأخبار ثم تذهب بها إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم. كذلك وزع النبي الأديار صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وأمر آخر لم يغفلهُ رسول الله -وحاشا لله أن يصنع- صلى الله عليه وعلى آله وسلم وهو أن عبد الله بن أبي بكر ؓ وأسماء بنت أبي بكر ؓ إذا ما سارا إلى الغار عند رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان للأقدام آثار على الرمال، فربما أتى القافّة من تباع الأثر فدلوا قريشاً على موضع رسول الله ﷺ اقتفاءً للآثار على الرمال.

فكان عامر بن فهيرة مولى أبي بكر -رضي الله عنه وأرضاه- على غنم له، إذا ما جاء عبد الله وجاءت أسماء ولدا أبي بكر -رضي الله عنهم أجمعين-، جاء بغنمهم فسار على طريقهما فعفّ على الآثار، ثم يبيت بأغنامه عند الغار عند رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فيحلب لهم فيشربون هنيئاً مريئاً -صلى الله على مُحَمَّدٍ ورضي الله عن صاحبه في الغار رضواناً كبيراً-، فإذا ما كان الصباح وقد لاح بتباشيره ؛ عاد عامر بن فهيرة إلى قريش كأنما أصبح فيهم وكذلك كان استعداد النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وأمر آخر لم يغيب عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم -وحاشا لله أن يغيب-؛ ذلك أنه استغل الخبرة التي كانت عند المشركين، فإن أبا بكر استأجر ابن أريقط ليكون دليلاً هادياً، وكان رجلاً مشركاً ولكنه كان عليمًا بمجاهل الصحراوات؛ فأتاهم على رأس ثلاثة أيام من مبيتهم في الغار -صلى الله على مُحَمَّدٍ ورضي الله رب العالمين عن صاحبه-، جاءهم فأمعن بالسَّير تجاه الجنوب ثم استدار غرباً حتى إذا كان قريباً من ساحل البحر الأحمر؛ سلك طريقاً غير مطروقة أبداً -هي نادرة جداً ما يطرُقها طارق-، وسار مُضِعداً صوب الشمال حتى قدّم مدينة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم. دخل النبي ﷺ المدينة وحلّ بقاء في بني عمرو بن عوف في شهر ربيع الأول في السنة الثالثة عشرة من مبعثه صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وخرج جوارى الأنصار ورجال الأنصار ونساء الأنصار، حتى اليهود في وقت قيلولة شديدة الحر فيها واحة النبي يظل وبرد، وقد نزل نزولاً بالسكينة كلها على مدينته صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فلما أن رآه يهودي وكان علي حصن من حصونهم، قال: يا بني قيلة؛ هذا جدكم الذي تنتظرون، هذا عظيمكم الذي تنتظرون، فخرجت المدينة عن بكرة أبيها للقاء الحبيب المحبوب صلى الله عليه وعلى آله وسلم. فأما الجوارى من ولائد الأنصار فأخذن الدُفوف ويغنين فرحاً بمقدم النبي الأمين: نحن جوار من بني الأنصار حبنا مُحَمَّدٌ من جار صلى الله عليه وعلى آله وسلم. ولم يقلن ما هو مشهور بين عامة المسلمين وخاصتهم: طلع البدر علينا من ثنيات الوداع.

وجب الشكر علينا ما دعا الله داع؛ لأن ثنّيات الوداع إنما هي في قبل الشام صوب المدينة من أعلى من جهة القادم من الشام، وأما ثنّيات الوداع والغناء الذي كان من جوارى الأنصار فرحاً بقدوم النبي ؛ فكان عند عودته ﷺ من غزوة تبوك، وأما في الهجرة فكُنَّ يغنين بين يديه قائلات: نحن جوار من بني الأنصار حبنا مُحَمَّدٌ من جار صلى الله عليه وعلى آله وسلم. نزل النبي قباء وبني المسجد وظل فيهم إلى يوم الجمعة، ثم ركب ناقته القصواء وسار إلى بني عوف بن سالم، فوجبت عليه فيهم الجمعة، فترل فصلّى هنالك الجمعة ولم يكن مسجده قد أُسس بعد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ثم بعثت الناقة من مبركها بعد الصلاة، والقوم جميعاً يتدافعون: إلينا يا رسول الله، إلينا يا رسول الله، وأكرم بك من جار يا رسول الله. كلهم يريد أن يحظى بشرف نزول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وأما الحكمة وأما الفطنة -دعك من هذا-، وأما الثبوة وأما الصدق وأما الإخلاص وأما الوفاء فيأبى إلى أن يُطَيّب قلوب الجميع؛ ليعلم الجمع أن الأمر لله رب العالمين وحده، وأن شرف نزول المصطفى عند أحد من هؤلاء الأكرام الأكارم الأطهار الأخيار إنما هو بتوقيف من الله رب العالمين، لا بأمر من مُحَمَّدٍ، مع أن أمر مُحَمَّدٍ ﷺ لا يكون إلا بوحى من الله رب العالمين، قال: «دعوا ناقتي وحلاً سبيلها فإنها مأمورة». وانطلقت الناقة وعليها خير راكب، خير من مس الحصى قط وانطلقت، كلما مرّ على قوم بحبهم: إلينا يا رسول الله، إلى المنعة والغلبة وحسن الجوار، يقول: «حلّوا سبيل ناقتي فإنها مأمورة»، فتنتقل حتى إذا كان عند أحوال أبيه من بني عدي بن النجار، خرجوا إليه بخولتهم لأبيه، يقولون: هلّم إلى أحوالك يا رسول الله، إن لنا عندك لرحماً مصونة.. وانزل علينا يا أكرم جار، فسرح النبي في الحي بصره وعاد سبعة وأربعين عاماً عندما أتت به أمه وهو في السادسة من عمره بعد موت أبيه لتزيّره قبر أبيه بالمدينة عند أحواله من بني عدي بن النجار، ولعب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في ساحة خؤولته في مراتع الشباب وفي مواطن الصبا مع لداته من خؤولة أبيه من بني عدي بن النجار منذ سبعة وأربعين عاماً.

النبي الآن على ناقته القصواء يقول: «حلّوا سبيل ناقتي فإنها مأمورة»، والدموع تقطر من عينيه إذ يذكر أمه عندما جاءت به منذ نصف قرن من الزمان لتزيّره قبر أبيه، فبكت عند القبر ما بكت، ثم أخذت بيد ولدها صبيها مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وعلى آله وسلم، يتيم الأب، في السادسة من عمره، وأرادت أن تعود به إلى مكة إلى آل أبيه، فلما أن كانت بالصحراء بالبادية بين مكة والمدينة جاءها أجلها، وإن الرسول ﷺ ليتخطى بصره يوم الهجرة نصف قرن من الزمان ليرى منظر المحاضرة بين يديه وما معه من أحد إلا أمته أم أيمن بركة وقد أسندت مولاتها إلى صدرها.

وسمّع الزمان يأتي إلى سمع النبي ﷺ يوم الهجرة عندما نظّر إلى الساحة عند خؤولة أبيه، يأتي سمّع الزمان إلى سمع النبي بحشرة أمه المحضرة وكيف أنها فاضت روحها بين يديه، ثم حملتها أمتها ومولاتها إلى الأبواء بقرية بين يثرب عندما كان ذلك اسمها، وبينها وبين مكة ما بينها، ففنت بالأبواء وعادت بيد النبي مضاعف اليتيم صلى الله عليه وعلى آله وسلم. واليوم يعود ﷺ على ناقته: «حلّوا سبيلها يا خؤولة أبي فإنها مأمورة»، وحلّوا سبيلها وخرجت فذهبت إلى المزد وبان وكان لعلّامين يتيمين بالمدينة، فبركت ثم قامت فانبعثت ثم أعادت نظرها مؤلّية فعاتت شيئاً؛ فبركت في مبركها الأول، فنزل النبي ﷺ، ووضع رَحْلُ ناقته فحملهُ أبو أيوب إلى داره مُسرِعاً، والقوم يقولون: إلينا يا رسول الله حتى نبي لك بيتاً، فيقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «المرء مع رَحله». فنزل على أبي أيوب الأنصاري، وكان الموضع الذي بركت فيه الناقة بأمر الله رب العالمين هو الموضع الذي يهفو إليه قلب كل مسلم اليوم؛ هو موضع مسجد النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فبني له فيه المسجد وشارك في حمل التراب على عاتقه، لئن قعدنا والنبي يعمل لذاك منا العمل المضلل، «اللهم ارحم الأنصار والمهاجرة». اللهم ارحم الأنصار والمهاجرة «يقولها النبي ﷺ مشاركاً للأنصار والمهاجرين في العمل في الحفر لأساس مسجد النبي الكريم ﷺ. ثم بُنيت حُجرات رسول الله ﷺ، ما وصفها؟ يقول الحسن السبط بن علي بن الزهراء -سبط النبي ﷺ-: «كنت أدخل آيات رسول الله ﷺ وأنا غلام مُراهق، فتطول يدي سَقَف بيت رسول الله ﷺ، فأما بعض حُجرات الرسول: فحجارة بعضها فوق بعض وسقفها من جريد ولا شيء عليها، وأما حُجرة حُجرة عائشة: فحُلُرُها من جريد مُطّين وسقفها من جريد لا شيء عليه، وعلى بابها سترٌ مرخي هو باب بيت رسول الله ﷺ الذي بنى فيه على عائشة -رضوان الله عليها-، وأما أثاث بيت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: فشدت أعوداً وجعل عليها حبال من ليف وطرح عليها فراش من آدم -أي: من جلد- حشوة ليف، ليس بين الفراش وبين الأرض إلا الحصير»، فهذا بيت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم. وأما القصور في الشمال -قصور كسرى وقِصر وأمراء غسان- يرتعون في قصوره وكذلك في الحيرة وفي مصر، وفي الجنوب في صنعاء في اليمن، فأما القصور فأيات من آيات المعمار -حدث عنه ولا حرج-، وأما الأثاث فباذخ باذخ لا يصف العقل توهم بعض ما كان عليه، وأما قبر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم الذي هو اليوم في حُجرة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فحجرته قبره وقبره حجرته وأثاث بيته ما قد وصفت وأمر نبيك إلى الله رب العالمين الذي يحفظه ويرعاه، فأما الأضواء فلم تخطف شيئاً من أضواء النبوة من هذا البيت التواضع -بيت رسول الله ﷺ-، فلما طلعت شمسُه؛ كسفت كل الأنوار وأطفئت كل الشموع وأضاءت شمس الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم. اللهم صلى وسلم وبارك على مُحَمَّدٍ صلاةً وسلاماً دائماً مثلاً لمن إلى يوم الدين. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم.

موسم الهجرة

فضيلة الشيخ الدكتور

أبي عبد الله محمد بن سعيد مرسلان

